المصدر: الحياه
التاريخ : ٦ اغسطس ٢٠٠٥

# على ماذا تتأسس العلاقات؟

>حازم صاغيَة الحياة - //05/08/06

في السجال المتواصل الذي يطاول العلاقات السورية – اللبنانية، هناك لازمة دائمة التكرار مفادها أن لبنان ينبغي أن لا يكون «شوكة في خاصرة سورية». والشوكة المقصودة ذات سنّين مروّسين جداً، أحدهما إسمه حرية الاعلام والثاني إسمه استضافة معارضين سوريين فوق أرض لبنان.

ومؤدى هذه المآخذ التي ذكرتها دمشق الرسمية صراحة في الأيام الأخيرة، كما أرفقتها بالعقاب الموجع للاقتصادين اللبناني والسوري، ان لبنان ينبغي أن يكون أقل ديموقراطية. فهو حين يتيح درجة أعلى من حرية الصحافة يكون يسيء الى «العلاقات الأخوية». وهو يفعل الشيء نفسه حين يستقبل معارضين لأنظمة الحكم في بلدانهم، خصوصاً ان المعارضة في عرف البعث الحاكم صنو المروق والتخريب.

يمرّ هذا الطلب كما لو أنه عادي وطبيعي، وبالعادية والطبيعية نفسيهما يردده لبنانيون كثيرون يتباهون باعتبار العلاقة مع سورية أولوية تتقدم على حرياتهم السياسية والاعلامية والديموقراطية، وعلى وظيفة بلدهم وصورته، وعلى طريقة حياتهم.

والحال أننا لا نسمع، في المقابل، طلباً يُفترض أن يكون العادي والطبيعي والصحي، بل المنطقي، وهو أن سورية ينبغي أن تكون أكثر ديموقراطية من أجل الارتقاء بـ «العلاقات الأخوية» بين البلدين وتطويرها.

وهو اختلال في التوازن غريب، إذ يلوذ من يطلب الديموقراطية لـ «أخيه» بالصمت المطبق، ويستولي عليه الحرج، فيما يتدجّج بالبلاغة والصوت الجهير من يطلب الاستبداد لـ»أخيه»، واجداً من يردد دعواه بين أبناء البلد «الشقيق الأصغر» أنفسهم.

والاختلال هذا لا يفسّره إلا الفارق في القوة المحضة. بيد أن الفارق المذكور يتغذى على ثلاثة: أن اللبنانيين منقسمون طائفياً بما يُضعف تمسكهم بنظام حر، وأن السوريين ممنوعون أصلاً من المطالبة بنظام حر، فيما ترسانة الكلام الأيديولوجي الجاهز تجعل الأقل ديموقراطية صاحب المصالح الوطنية المعرضة لتهديد «الغزوة» الأميركية والاسرائيلية، فيما ترسم الأكثر ديموقراطية بوصفه حليف هذا التهديد.

ما لا يرقى اليه الشك أن توصل لبنان وسورية الى علاقات مستقرة ونامية بينهما ضرورة للبلدين ولشعبيهما، لا يجادل في ذلك الا متزمّت. لكن من الضرورة التوكيد على أن «المادي» الذي يخسره لبنان من جراء سوء العلاقات يعادله «المعنوي» الذي تخسره سورية وتحتاجه على نحو قاهر.

وبالمعنى هذا، يكون في صالح البلدين إبقاء المسألة هذه في الذهن، وهي أن مطالبة دمشق بالانفتاح أفيد وأصحّ من مطالبة

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

بيروت بالانغلاق. وتأسيس العلاقات على قاعدة الحرية إنما يجعلها، نظرياً وعملياً أيضاً، أقوى مما لو تأسست على قاعدة الخوف من القوة المحضة والتهديد بالخنق والحصار، فضلاً عن نقاط الضعف في الكيان الأصغر والأضعف.

وهذا جميعاً معطوف على أن العلاج بالرقابة غدا فاقداً جدواه في الزمن الاتصالي الراهن. ذاك أن ما لا تنشره الصحف تنقله التلفزيونات، وما لا تذيعه التلفزيونات يبثّه جهاز الانترنت. والعالم، في آخر المطاف، غدا فضاءات مفتوحة وآذاناً صاغية وعيوناً رائية على نحو تقف فيه الرقابات عاجزة، ويؤول جهدها الى النفايات.

www.ethraadl.com